

أثر مقاومة المقرانيين وانتفاضة الصبايحية والكلبوتي في فرض الحماية الفرنسية على تونس

The Impact of the Mokrani Insurrection, and the Revolt of Sabayhis and Kalboti in the French Protection on Tunisia

أ. فارس العيد

أستاذ محاضر قسم "ب"

تاريخ حديث ومعاصر، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية - جامعة حسيبة بن بوعلي بالشلف

laid.fares@gmail.com

ملخص

عرفت منطقة الشرق الجزائري عدة مقاومات ضد المحتل الفرنسي منذ سقوط مدينة قسنطينة في سنة 1837م، غير أنها لم تكن مهيكلة ومؤطرة بما يخدم استمراريتها ولكنها أكدت على رفض الجزائريين للوجود الاستعماري عموماً، وتعتبر مقاومة المقرانيين، وانتفاضة الصبايحية والكلبوتي من أهم الأحداث التي شهدتها المنطقة، حيث كان لها تأثيرات عميقة في منطقة الحدود الجزائرية التونسية، وهو ما جعل السلطات الفرنسية تحاول استغلال حالة الاضطرابات المترتبة عنها حتى توسع منطقة احتلالها لتشمل تونس، فقد كانت تونس تعتبر بالنسبة للجزائريين منطقة دعم لغالبية المقاومات التي شهدتها منطقة الشرق الجزائري. ولكن الأسباب الحقيقية التي دفعت الفرنسيين لفرض نفوذهم بتونس تعود بالأساس إلى حالة الضعف التي كانت مستشرية في أوصال القطر التونسي على عهد آخر دايات الاسرة الحسينية والتكالب الاستعماري على تونس من قبل القوى الأوروبية خلال النصف الثاني من القرن 19م. ونظراً لطبيعة علاقات الجزائريين بتونس ووعيهم بأخطار المشروع الاستعماري الفرنسي فانهم وقفوا في الصفوف الاولى لمواجهة التوسع الفرنسي بها سواء من خلال العمل العسكري أو النضال السياسي.

الكلمات الدالة: الجزائر، تونس، الحدود، الاستعمار، المقاومة، المقرانيين، الصبايحية والكلبوتي.

Abstract

The Resistance continues against the French occupation in the East Algerian since the fall of the city of Constantine in 1837, but it did not continue for many years because it was not properly structured. The Moukranis, Spayhis and Kalpoti were the most famous resistances in the region. These resistances Led to profound impact on the Algerian border of Tunisia, the French authorities tried to exploit this even to impose the occupation on Tunisia because Tunisia was for the Algerians a support area during armed resistance against the occupier, but the real reasons for the occupation of Tunisia are the state of weakness that was widespread in the country during the last days of the Husseini family and the colonial takeover of Tunisia by the European powers during the second half of the 19th century. Given to the nature of the relations between the Algerians in Tunisia and their awareness of the dangers of the French colonial project, they stood in the first rows to confront the French expansion, whether through military action or political struggle.

Keywords: Algeria, Tunisia, The border, colonization, Resistance, Moukranis, Spayhis and Kalpoti.

مقدمة

المقراني، فمصادرة الأراضي أضحت تسير بوتيرة سريعة عن طريق مرسوم 24 أكتوبر 1870م، حيث صودرت في خلال هذه السنة حوالي 500000 هكتاراً⁽⁹⁾.

كما تعود هذه المقاومة أيضا إلى سياسية فرنسا القاضية بتحطيم العائلات الجزائرية الكبيرة التي كان لها نفوذ كبير كأسرة أولاد سيدي الشيخ، وأسرة المقراني في مجانة وأسرة ابن قانة في بسكرة والزيان، وأسرة بوعكاز بن عاشور، وأولاد بن عز الدين في فرجوة والزواغة بالبابور، وأسرة أولاد المختار تيزي وزو، وأسرة أولاد محي الدين بدلس، وأسرة أولاد المختار بالتيطري، وابن صيام في مليانة⁽¹⁰⁾. وبالرغم من الأسباب العديدة التي دفعت سكان منطقة الشرق الجزائري إلى المقاومة أن بعض الكتابات الفرنسية نجدها ترجع هذه المقاومة إلى تزايد نفوذ اليهود في الجزائر⁽¹¹⁾، وهو أمر غير معقول بالنظر إلى الأسباب المذكورة سابقا.

أما بالنسبة للأسباب المباشرة لهذه المقاومة فترجع إلى أن السياسة الاستعمارية الفرنسية التي قد أثرت ماديا ومعنويا على باشاغا المقرانيين محمد بن أحمد المقراني⁽¹²⁾، فمنذ تولي هذا الأخير لمنصب الباشاوية في سنة 1853م، حاولت السلطات الاستعمارية الفرنسية التقليل من نفوذ المقرانيين، فقد أضحت أن جعلت من محمد بن أحمد المقراني مجرد موظف يتقاضى أجره كباقي الموظفين الآخرين (خصص له أجر قدر بحوالي 10.000 فرنك فرنسي) وجرد من العديد من صلاحيات والده محمد المقراني⁽¹³⁾، وبدأت وضعية الأسرة تتعقد أكثر بعدما أجبر محمد المقراني على دفع الزكاة التي لم تكن مفروضة عليه، كما عمدت السلطات الفرنسية أيضا إلى إذلاله وذلك بوضعه تحت رقابة ضباط فرنسيين أقل شأنا منه، وفي عام 1864م، اتهم بالتواطؤ مع أولاد ماضي الذين دخلوا الحرب إلى جانب أولاد سيدي الشيخ وهو ما دفعه إلى تقديم استقالته ولكنها رفضت، وفي 09 مارس جدد الباشاغا استقالته للجنرال لاموند غير أن المفتش الجديد لعامة قسنطينة تحدها بان يقدم استقالته كتابيا، وحمل من قبل سلطات الاحتلال الفرنسي مسؤولية كل الاضطرابات التي كانت تحدث بمجانة وضواحيها، وعلى اثر ذلك اتصل الباشاغا بأقربائه لإعلان الجهاد ضد الفرنسيين⁽¹⁴⁾، متخذاً من دعوة الشيخ الحداد⁽¹⁵⁾ أساسا لحركته تلك، حيث غادر مركزه في 15 مارس 1871م، وقد انتشرت هذه الثورة من القبائل إلى الأوراس والصحراء، وكان المقراني يتوقع المساعدة من الأمير عبد القادر، والإمبراطورية العثمانية وتونس، ولكن هذه المساعدة لم تتحقق⁽¹⁶⁾.

غير أن قوات الاحتلال الفرنسي بعد أن أعادت الاستقرار لبلادهم، كرست جهودها لقمع المقاومة في الجزائر ووضع حد لها، وكان وفاة المقراني، الذي قتل في معركة (ماي 1871م)، قد أضعف المقاومة، وقد خلفه في القيادة أخوه بومرزاق وسي عزوز ابن الشيخ الحداد، ولكن هذه القيادة الجديدة ارتكبت خطئين استراتيجيين: الأول كان مد المقاومة إلى الصحراء

أولت السلطات الفرنسية اهتماما خاصا بتونس بعد احتلالها للجزائر عام 1830م فقد اعتبرتها امتدادا طبيعيا للجزائر من الجهة الشرقية، ولذلك كانت تبحث عن الذرائع لاحتلالها وتترقب الظروف الدولية المناسبة لتحقيق هدفها هذا، فعملت على استغلال اضطرابات الحدود خصوصا بعد انتفاضة المقرانيين ثم الصبايحية والكلبوتي، حتى تحصل على الحجة المناسبة لحشد قواتها من أجل التدخل في الأراضي التونسية، ومن جهة أخرى استغلت السلطات الفرنسية اضطراب العلاقات بين الدول الأوروبية مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين حتى تحقق مشروعها.

وجدت السلطات الفرنسية في أحداث الحدود الجزائرية التونسية الفرصة المناسبة لفرض سيطرتها على تونس، والملاحظ أن المناوشات على الحدود، بين القبائل التونسية والجزائرية لم تكن وليدة شهر مارس 1881م، بل تعود إلى زمن بعيد حيث سجلت السلطات الاستعمارية الفرنسية في الجزائر ما لا يقل عن 2380 حادثة فيما بين سنة 1870 وسنة 1881م، أي بمعدل 200 حادثة كل سنة⁽¹⁾، وهذا يبين أن الحكومة الفرنسية لم تعر هذه المسألة أي اهتمام إلا عندما أرادت بسط حمايتها على البلاد التونسية، وبذلك لم تكن قضية خمير إلا سببا اتخذته الحكومة الفرنسية لتشريع منذ شهر أفريل 1881م في احتلال البلاد التونسية⁽²⁾.

المقرانيين⁽³⁾ بالقطر التونسي

تعتبر مقاومة سنة 1871م أكثر خطورة تاريخيا وأهمية فقد حدثت بمجرد سقوط فرنسا أمام القوات البروسية بقيادة بيسمارك، ذلك أن الجزائريين كانوا يراقبون بعناية الحروب والدعائيات الأوروبية متوقعين النصر لأصدقائهم والهزيمة لأعدائهم ومنظرين الفرصة للمقاومة ضد فرنسا إذا خسرت الحرب في أوروبا⁽⁴⁾. فقد اعتاد الفرنسيون منذ عقود أن يخبروا الجزائريين أساطير عن عظمة فرنسا وعن روح جيوشها التي لا تهزم، ولكن بعد 1870م لم تعد هذه الأساطير تقنع حتى الجزائريين الخرافيين⁽⁵⁾. وقد تسببت عدة عوامل في اندلاع المقاومة لعل من أبرزها قيام الإمبراطورية الفرنسية الثانية بعمليات تهجير واسعة للكولون الأوروبيين والفرنسيين إلى الجزائر حيث كان نابليون الثالث⁽⁶⁾ يرى بأن "الجزائر ليست فقط مستعمرة فرنسية، وإنما هي مملكة فرنسا العربية"، وأكد على أن "الجزائر ستكون لفرنسا مصدر قوة لا مصدر ضعف"⁽⁷⁾، ولذلك نجد بأن عدد المستوطنين في الجزائر قد عرف ارتفاعا ملحوظا ففي سنة 1870م وصل عدد القادمين من أوروبا إلى الجزائر حوالي 220000 مهاجر أوروبي جديد⁽⁸⁾. وهو ما أنجر عنه أزمة فلاحيّة مست عدد كبير من الجزائريين، الذين كانوا يردخون لضرائب كثيرة كانت قد أقرتها سلطات الاحتلال الفرنسي وهو الأمر الذي دفع الجزائريين للمقاومة ضد قوات الاحتلال الفرنسي بقيادة

العديد من الصبايحية في سوق أهراس في فيفري 1871م يثورون على ضباطهم الفرنسيين ويقتلونهم⁽²³⁾، وفي 24 أفريل 1871م هددت فرق عسكرية من الصبايحية، سيطروا على منطقة العلمة ودخلوا في صدامات عسكرية مع قوات الضابط فورشول، وفي الأيام الأولى لشهر نوفمبر فر خمسة وسبعون من جنود الزواف بأسلحتهم وأمتعتهم من معسكر بوغار إلى المدينة، وقصر البوخابر، فلاحقهم رجال الدرك وبعض الزواف والدرك فتمكنوا من اعتقالهم وتمت محاكمتهم عسكريا حيث حكم عليهم مابين سنتين وعشر سنوات سجن مع الأشغال الشاقة⁽²⁴⁾، وبعد ذلك تزايدت أحداث الصبايحية مترامنة مع ثورة المقراني، ففي عين القطار بسوق أهراس على الحدود التونسية أصر الصبايحية على رفض الامتثال لأوامر السفر إلى فرنسا، وهرب 135 منهم بأسلحتهم وأمتعتهم إلى مزرعة "عمي موسى" على بعد 4 كلم من زمالتهم في يوم 22 و23 جانفي 1871م، وتبعهم في اليوم الموالي 102 آخرون، وتوالى تجمعهم بعد ذلك حتى وصلوا إلى حوالي ألفي رجل⁽²⁵⁾.

انضم إلى الصبايحية بمقرهم بمزرعة عمي موسى أهاليهم وكل الغاضبون من السلطات الفرنسية بالإضافة إلى عدد من أهالي الحنانشة، بزعماء أحمد الصالح بن زرقى والفضيل بن الفضيل بن رزق، والتحق بهم محمد الكيلوتي⁽²⁶⁾ بن الطاهر رزقي من تونس، وبعد ذلك تصاعدت الأحداث في المنطقة حيث تمكن الصبايحية من قتل العمرين و جنود وضباط من الجيش الفرنسي، ففي معركة عين سنور التي جرت في يوم 30 جانفي 1871م، قتل حوالي 15 من الطرف الفرنسي⁽²⁷⁾.

انسحاب الصبايحية والكلبوتي إلى تونس

بعد تطور تلك الاضطرابات وزيادة الضغط الفرنسي على الصبايحية اضطروا إلى الانسحاب مع الكلبوتي وأتباعه إلى داخل الحدود التونسية بعد أن قام الكلبوتي بمراسلة باي تونس المشير مصطفى باشا، ورئيس وزرائه مصطفى خزندار، يطلب الحماية، وتقديم العون له وللصبايحية الذين دخلوا معه إلى هناك، وقد استقبلهم بالكاف الشيخ الميزوني بحفاوة، وقد كان الوزير التونسي قد أذن بإبعادهم عن منطقة الحدود وتقديم الحبوب لهم. فوزعوا على أربعة مناطق في عرش دريد، والحق الوزير التونسي على ضرورة إبعادهم عن منطقة الحدود ومراقبتهم حتى لا يتسببوا في مشاكل لدولته مع فرنسا⁽²⁸⁾، غير أن الكلبوتي لم يمتثل للتعليمات الرسمية للحكومة التونسية، فأخذ يقوم بنشاط ثوري بمنطقة الحدود رغم أن المكان الذي حدد لإقامة عائلته هو الكريب من عمل تبرسق، وشارك في عدد من الأحداث والمعارك التي كانت تدور بالمنطقة بعد اندلاع مقاومة المقراني والحداد، وامتداد أثرها إلى المنطقة الشرقية. ومن ضمن المعارك التي اشترك فيها، نذكر معركة 24 جوان و30 أوت 1871م، والتي قتل فيها أخوه الفضيل بن رزقي⁽²⁹⁾، وبقي يتردد بين تونس والجزائر إلى أن طرد بصفة نهائية من تونس عام 1875م بصحبة بن ناصر بن شهرة⁽³⁰⁾.

حيث النقص في السكان والعتاد والماء، والثاني كان استعمال طريقة الهجوم المباشر ضد قوات الاحتلال الفرنسي، وهذان الخطئان رجحا الكفة لصالح قوات الاحتلال الفرنسي الذين استطاعوا أن يأسروا بومرزاق وسي عزيز في جانفي 1872م⁽¹⁷⁾.

وبعد انكسار المقرانيين أمام قوات الاحتلال الفرنسي في الجزائر، حاولوا تجديد مقاومتهم انطلاقا من تونس التي استقروا بها بعد أن قادهم إليها بن ناصر بن شهرة مع بداية سنة 1872م، وكان عددهم حوالي 504 شخصا من رؤساء العائلات والخيم، فقد استقبلتهم السلطات التونسية وأذنت بدخولهم إلى ترابها ولكنها احتارت كيف تعالج أمورهم لأن السلطات الاستعمارية بالجزائر التي ضغطت عليها، فاتجه وفد منهم إلى الأمير عبد القادر، وآخر إلى الأستانة طالبين التدخل لصالحهم لدى سلطات تونس حتى تأذن باستقرارهم هناك وتقديم لهم العون المادي والحماية⁽¹⁸⁾، وقد كانت للأمير عبد القادر مراسلات مع وأعيان تونس ولاسيما الوزراء: مصطفى خزندار، ومحمد البكوش، ومصطفى بن اسماعيل، ورستم باشا وغيرهم، وأهم موضوعات المراسلة معهم كانت بشأن أهالي الجزائر بتونس، وخصوصا عائلة المقراني ومن تبعهم من الأنصار إلى تونس بعد مقاومة سنة 1871م⁽¹⁹⁾، أما الصدر الأعظم العثماني فقد كتب رسالة إلى باي تونس أخبره بوصول وفد المقرانيين إلى الأستانة طالبا التدخل لصالحهم فأجابهم وسلم لكل واحد منهم رسالة توصية وعددهم 504 رئيس عائلة، وقد استجابت تونس لهذه التدخلات وتم توزيع اللاجئين المقرانيين في عدة جهات من بلاد تونس، مثلما تم توزيع صبايحية زمالات الحدود على أربعة من عروش دريد قبل ذلك في بداية عام 1871م⁽²⁰⁾.

رسخت مقاومة المقراني متانة الصلات بين الجزائريين والتونسيين، وبالرغم من التضيق الذي كانت تمارسه السلطات التونسية من جهة، وسلطات الاحتلال الفرنسي في الجزائر، غير أن توالي القيادات على رأس المقاومين الجزائريين خلال هذه الفترة سيكون له تأثير كبير على استمرارية المقاومة انطلاقا من الأراضي التونسية. وفي نفس الوقت سيجعل السلطات الفرنسية تدرك بأن قوة هذه المقاومات يكمن في الدعم الذي تحصل عليه من تونس.

انتفاضة الصبايحية والكلبوتي

تعود أسباب انتفاضة الصبايحية⁽²¹⁾ إلى رغبة السلطات الاستعمارية الفرنسية في تجنيدهم إبان الحرب الفرنسية البروسية في أوائل عام 1871م، ولم تكن سلطات الاحتلال الفرنسي قبل ذلك تجندهم في حروبها الخارجية، فأصدر وزير الحرب الفرنسي قرارا بتاريخ 18 جانفي 1871م يقضي بنقل عدد منهم إلى أوروبا، وتسبب ذلك في ثورتهم بزمالات مجبر والطارف وبوحدجار، وعين قطار بشرق البلاد ووسطها⁽²²⁾. غير أن الأسباب الحقيقية لهذه الانتفاضة تعود إلى سوء معاملة الضباط الفرنسيين بالمكاتب العربية لموظفي سلطة الاحتلال الفرنسي من قبائل الصبايحية، فنجدهم

العيادة سنة 1872م، وكانت تقدر بإحدى عشر خيمة قرب جمعة عبد الله وهي المنطقة التي استقر بها بعض المشاركين في انتفاضة الصبايحية والكلبوتي وكان عددهم أربع خيام مملوكة لمحمد بن أحمد البياس الخادم الخاص للكلبوتي، وقد أدت هذه الأحداث الى تحديد الحدود ولو بصورة مؤقتة بين الجزائر وتونس واعتبر المكان المسمى قرن عائشة نقطة البداية كحدود جديدة وكذا الماء الأحمر لجنان الورد على مسافة 200 متر على فج المير (وهو مخيم الجنرال لأكروا على طريق ذراع خيرون - سوق أهراس)، واد سوف، عين الريحانة، فج مراو، وقد أدت الهجرة الى تونس الى تدني المستوى المعيشي للعائلات الكبيرة التي هاجرت الى تونس فعائلة المقراني التي كانت ثرية فقدت كل ثرواتها بعد الهجرة الى تونس، وأصبحت من رعايا باي تونس اي أنها أصبحت مطالبة بدفع المجهي، وبعد خمس سنوات من قدومها الى تونس أي سنة 1876م تدنى مستواها حتى أن هناك منهم من خمس، ولعل هذا الاستنزاف الذي شهدته عائلة المقراني هو ما جعل البعض من عائلة المقراني يشتغلون كقياد على البلاد التونسية بعد فرض الحماية عليها سنة 1881م، ومنهم المقراني مسعود بن عبد الرحمان الذي استقر بتونس بعد فشل انتفاضة 1871م، فقد عينته السلطات الفرنسية كخليفة بناحية القطار سنة 1882م، ثم حصل على رتبة قايد الجبل سنة 1886م، ثم الهامة الزهارة سنة 1895م إلى أن اعفي من وظيفته سنة 1898م⁽³³⁾.

فرض الحماية الفرنسية على تونس

كانت بداية التوسع الفرنسي شرقا مستهدفة الايالة التونسية التي كانت تعيش ظروفًا سمحت بتغلغل الأطماع الأجنبية بها خاصة الفرنسية من جهة، ومن جهة أخرى كان تطلع قوى اوروبية أخرى لفرض هيمنتها على تونس يشكل تهديدا للوجود الفرنسي بالجزائر. فقد أثارت الوضعية التي كانت تعيشها تونس في النصف الثاني من القرن التاسع عشر مطامع القوى الاستعمارية الأوروبية العظمى، وخاصة فرنسا وانكلترا بل وحتى إيطاليا⁽³⁴⁾، كما ساعدت أوضاع تونس الداخلية فرنسا على تنفيذ مشروعها، وذلك نتيجة لهشاشة السلطة الحاكمة في تونس والتي كانت بيد بايات الأسرة الحسينية، الذين كان سلوكهم قبل الحماية أقرب إلى سلوك الأوصياء على العرش الحسيني منها إلى سلوك رؤساء الدول وزعماء السياسة، وكان مهمهم إدارة شؤون الأسرة وضمان مواردها⁽³⁵⁾، ورغم تبعيتهم للباب العالي فإن الباي كان في حقيقة الأمر مستقلا، فهو يجمع بين السلطتين التشريعية والتنفيذية ويملكه النظر في مختلف القضايا العدلية. وتعتبر كل القرارات والمراسيم التي تصدر عنه قانونا نافذا المفعول، وقيل فرض الحماية الفرنسية على تونس كانت تسير بيد الوزير الأكبر والذي كان يباشر تسير الشؤون المالية والخارجية للآيالة، ويساعده في الإدارة العامة للبلاد وزير الداخلية يسمى وزير القلم ومستشارون يرأسون مختلف الأقسام. لقد الباي محمد الصادق عام 1881م

كان من نتائج هذه الانتفاضة هجرة العديد من العائلات الى تونس، وقد تذرعت السلطات الفرنسية بان تكرار حوادث الحدود قد أخل بالسيادة الفرنسية في الجزائر حسب زعم الفرنسيين، وبالرغم من القضاء على الانتفاضة في سنة 1871م، إلا أن حوادث الحدود تكررت واستمرت حركة الهجرة والفرار نحو تونس، ففي سنة 1872م هاجرت بعض العائلات من من فرقة أولاد طرودي قدرتها التقارير الفرنسية بثماني خيام، ومن أجل التضييق على أعراس الحدود كثفت السلطات الفرنسية من عمليات المراقبة على الحدود، وساعدها في ذلك السلطات التونسية وخاصة حاكم الكاف سي رشيد، كما أن شيوخ الأعراس التونسية الذين أيدوا الصبايحية والكلبوتي قد عزلوا أو سجنوا ففي أوائل شهر ديسمبر 1872م سجن شيخ أولاد سديرة صالح بن محمد لهذا السبب، أما أولاد بوغانم الذين التجأ إليهم الكلبوتي في بداية الانتفاضة فقد سجن اثنين من شيوخهم لهذا السبب، كما منع باي تونس تصدير الماشية الى الجزائر، وأصدر أمر بإلقاء القبض على الكلبوتي، مما أجبر هذه الأخيرة على مغادرة واد الرمل أين كان يقيم والاتجاه الى وجهة مجهولة، أما المقرانيين فقد قسموا سنة 1872م الى مجموعات اذ استقر بعضهم بتونس، والبعض الآخر استقر بماطر على طريق باجة رفقة فرقة أولاد عبد السلام، واستقر البعض بالكريب حيث استقر الصبايحية الفارين من منطقة سوق أهراس⁽³¹⁾.

يعبر التضامن الذي أبداه الشعب التونسي وسلطاته لصالح الصبايحية واللاجئين الجزائريين عموما خلال هذه الفترة صفحة مشرفة لتواصل القطرين، فبقيت الأراضي التونسية بذلك قبلة للثوار الجزائريين بالرغم من تأمر السلطات الفرنسية مع نظيرتها التونسية، فتواصل الشعبين في القطرين كان أكبر من أن تحتويه السلطات الاستعمارية الفرنسية، حيث تواصلت بعد ذلك صور التضامن بين الشعبين خلال المقاومات اللاحقة التي عرفتها الجزائر. فمقاومة الأوراس الغربية في سنة 1879م هاجروا هم الآخرين إلى تونس بعد فشل مقاومتهم واستقروا بمنطقة الجريد، غير أن ضغوطات السلطات الاستعمارية الفرنسية دفعت السلطات التونسية إلى تسليمها لزعيم تلك المقاومة محمد أمزيان بن عبد الرحمان الملقب ببوبرمة مع 300 شخص من أتباعه لتحاكمهم السلطات الاستعمارية الفرنسية في سنة 1880م⁽³²⁾.

لكن بالرغم من الإجراءات الفرنسية والتونسية فقد واصلت أعراس تونس الحدودية مساندتها للفاشرين من القمع العسكري الفرنسي، ففي جانفي 1873م هاجرت بعض العائلات من فرقة أولاد سكياس الى تونس، ولقيت الحماية والتأييد من عرش أولاد بوغانم بتونس الذين رفضوا أوامر حاكم الكاف سي رشيد باشارك فرسانهم في مطاردة الفارين من أولاد سكياس، أما فرقة أولاد خليفة التابعة لدائرة تبسة العسكرية فقد خيمت بالهرية على حدود عرشي أولاد بوغانم وشارن وهو نفس الموضع الذي استقرت فيه بعض العائلات من

في شهر فيفري 1881م صحيفة فتاة من قبيلة ناهد الجزائرية، وكان هذا الحدث كافيا لتدخل القوات الفرنسية في تونس، فقد جرت إثره عدة مناوشات بين قبيلتي ناهد وخمير أدت إلى تدخل السلطة الفرنسية بدعوى الحفاظ على الأمن في الحدود ثم آل الأمر إلى مواجهة بين الجيوش الفرنسية والقبائل التونسية يومي 30-31 مارس 1881م.

احتلت الجيوش الفرنسية تونس في شهر ماي 1881م، ودخلتها من ثلاث مناطق عن طريق البر والبحر ابتداء من مستعمراتها الجزائر، وأنزلت بميناء بنزرت قوات مسلحة قدمت من فرنسا ومعها القائد العام للحملة العميد بريار⁽⁴³⁾، وعند الساعة الثامنة من مساء 12 ماي 1881م قضت فرنسا على استقلال تونس⁽⁴⁴⁾، بعد إرغام الباي محمد الصادق توقيع معاهدة باردو والتي نصت على أن الاحتلال مؤقت، وأن القوات الفرنسية سوف تحتل فقط جهات على الحدود والشواطئ تراها لازمة لتوطيد الأمن، وأن هذه القوات سوف ترحل عندما تكون الإدارة التونسية قادرة على حفظ الراحة والأمن والنظام، وأن فرنسا ملتزمة بحماية شخص الباي وأسرته، وأنه لا يحق للباي بأن يعقد أدنى عقد مع أجنبي بغير علم فرنسا والتفاهم معها من قبل، وأنه سينوب عن فرنسا وزير مقيم فرنسي يراقب تنفيذ ما تضمنته المعاهدة، وأن على حكومة الباي أن تتعهد بمنع إدخال الأسلحة والمهمات الحربية من جزيرة جربة ومرسى قابس وغيرها من المراسي بجنوب المملكة وذلك وقاية لبلدان الجزائر التي تملكها فرنسا⁽⁴⁵⁾.

وإضافة إلى ما سطرته هذه المعاهدة وتأكيدا على تسهيل تنفيذها تدخل المقيم العام الفرنسي في اختيار خليفة الباي محمد الصادق، وفي 08 جوان 1883م قبل الباي الجديد على توقيع معاهدة جديدة مع الوزير المقيم آنذاك بتونس بول كامبون، وقد عرفت بمعاهدة المرسى، وقد تضمنت مبادئ جديدة مؤكدة ومكملة لمعاهدة باردو، وكان الهدف منها توسيع سلطة فرنسا وإدخال الإصلاحات الإدارية والقانونية والمالية، والتي ترى الحكومة الفرنسية أنها ضرورية، وقد وردت في هذه المعاهدة كلمة الحماية لأول مرة⁽⁴⁶⁾. إذا كانت المعاهدة الأولى نصت على قبول الباي باحتلال فرنسي مؤقت من أجل استتباب الأمن وإنشطة مهمة مراقبة العلاقات التونسية الخارجية، والتدخل في اتخاذ التدابير الكفيلة بتحسين الوضع المالي للولاية بفرنسا، فإن المعاهدة الثانية ذهبت إلى أبعد من ذلك حيث أقرت في مادتها الأولى: "من أجل تسهيل مهمة حمايته من قبل الحكومة الفرنسية، فإن سعادة الباي يلتزم باتخاذ الإصلاحات الإدارية، القضائية والمالية التي تراها الحكومة الفرنسية ضرورية". وإذا انتقلت الأمور من احتلال عسكري مؤقت، إلى نظام حماية غير محدود المدة، ومن تعاون تقني على الصعيد المالي، إلى إصلاح شامل للدولة التونسية، وأوكل أمره إلى للمبادرة الفرنسية، أكثر من ذلك فإن الأمور سوف تتطور من نظام حماية أقرته النصوص إلى أسلوب الإدارة المباشرة فرضه الواقع⁽⁴⁷⁾.

ناقص التكوين، وهذا ما جعله قليل الاكتراث بالشؤون العامة للبلاد تاركا الأمر لحاشيته، وكان الوزير الأكبر مصطفى بن إسماعيل شديد التأثير على الباي، وقد استغل ضعف الباي فأدار شؤون الولاية حسب أهوائه، أما فيما يخص الوضع المالي لتونس فقد كان كارثيا إذ بمقتضى اللجنة الدولية التي كلفها الصادق باي نزولا عند رغبة الدول الأجنبية المدينة لتونس أضحت في سنة 1870م حوالى 125000000 فرنك فرنسي، وقد كانت اللجنة الدولية غير مكترثة بمصالح البلاد حيث كان دورها ينحصر في الدفاع عن مقرضي الباي⁽³⁶⁾، كما كانت الفئات الكادحة في تونس قبيل الحماية ترذخ تحت نظام ضريبي ثقيل جدا، ورسخ ذلك النظام الضريبي نظاما إقطاعيا لم تكن الرعايا ضمنه تدفع الضرائب بناء على مواردهم المقدرة أو الحقيقية، بل حسب نفوذهم أو قدرتهم على المواجهة⁽³⁷⁾، ووصل الأمر إلى أن نهبت الحكومة مداخيل الأوقاف وتضاعف الدين العمومي، وكان أرباب الأموال من الأوروبيين يشجعون الحكومة على إبرام القروض من بنوك لندن وباريس، وهو ما أدى إلى سخط عام على الأوضاع التي آلت إليها البلاد، والتي أدت إلى اضطرابات عارمة، وبذلك أضحت تونس معرضة للتدخل الأجنبي⁽³⁹⁾.

ومن الناحية الاقتصادية فقد كانت تونس على عهد صادق باي تعاني ضعف الإنتاج الزراعي وأصبحت الصناعات التقليدية تعاني من المزاخمة الأوروبية، مع تدهور التجارة الخارجية، وأصبح الفلاحون مرغمين على بيع مواشيهم حتى يمكنهم دفع الأداة، وارتفعت أسعار الحبوب والمحاصيل الغذائية حتى أصبح من المألوف أن يساق المئات من المدينين المفلسين إلى السجن كل يوم⁽⁴⁰⁾.

وابتداء من سنة 1878م أصبحت القوى الأوروبية لا ترى مانعا من انتصاب حماية فرنسية على تونس، وقد تبلورت هذه النظرة منذ مؤتمر برلين المنعقد من 13 جوان إلى 13 جويلية، وقد كانت من جملة الأسباب الحقيقية التي دفعت فرنسا لفرض الحماية على تونس، مسألة الديون التونسية المستحقة لرجال الأعمال والمضاربون فيرى البعض أن مسؤولية التدخل الفرنسي بتونس تعود أساسا إلى الشركات المالية الكبرى، فقد كان جول فيري⁽⁴¹⁾ يعتقد حقا أن مصالح فرنسا تتطابق مع مصالح أبنائها من أصحاب رؤوس الأموال⁽⁴²⁾.

وكانت مشاكل الحدود التونسية الجزائرية هي أحسن وسيلة يمكن أن تتخذها فرنسا كذريعة للتدخل في شؤون باي تونس محمد الصادق (1859-1882م). وبتاريخ 30 مارس 1881م حدث اشتباك على الحدود بين القبائل، وتوغلت فيه قبائل تونسية داخل حدود الجزائر، مما أعطى فرنسا الحجة للتدخل في الشأن التونسي، حيث ادعت السلطات الفرنسية أن هذه الحدود تتعرض باستمرار لهجمات القبائل التونسية، وبالأخص قبائل بني خمير، وآخر حدث سجل في هذا المجال تمثل في اغتيال مواطن من أولاد سدره من قبيلة خمير فوجئ

5- أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج 2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1992، ص 52.

6- هو شارل لويس نابليون بونابارت (1808- 1837) Charles Louis Bonaparte، الملقب بلويس نابليون بونابارت ثم نابليون الثالث، ولد في باريس في 20 أبريل 1808، ومات في 9 جانفي 1873م بشيكلهبرست بالملكة المتحدة، تولى رئاسة الجمهورية الفرنسية كمنتخب في 10 ديسمبر 1848م، ثم أصبح امبراطورا لفرنسا في 2 ديسمبر 1852م إلى غاية 04 سبتمبر 1870 تحت لقب نابليون الثالث. ينظر: الكيالي عبد الوهاب وآخرون، الموسوعة السياسية، الطبعة الثانية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، لبنان، ج 1، 1990، ص 325.

7-Passeron.R. Les grands sociétés et la colonisation dans l' Algérie du nord, Alger.1926.P.346.

8-Yahiaoui Mrabét Massouda, Sociétés Musulmane et communautés européennes dans l'Algérie du dix-neuvième siècle (réalités, idiologie, mythes et stéréotypes), T1, Edition Houma, Alger, 2009.P.155.

9-Fatiha Benchikh-El- Faqoun Abbassi, L'impact des lois foncières coloniales sur la situation socio-économique des paysans Algériens, de 1873 a 1911(application a trois communes de l'ancien arrondissement de Constantine (el Khroub- Oum el Bouaghi - El Mila), Université Mentouri de Constantine, Faculté des sciences Humaines et sociales, 2006-2007, P.P. 29-30.

10- Louis Rinn, Histoire de l'insurrection de 1871 en Algérie, Librairie Adolphe Jordin, Algérie, 1891, P.P.32-36.

11- Alfred Rambaud, Op.Cit, P.07.

12- ولد أحمد بن محمد المقراني ما بين 1810 و 1820م بناحية مجانة (برج بوعريج)، تولى منصب باشاغا سنة 1853م بعد وفاة والده. ينظر: سعيد بورنان، المرجع السابق، ص 163.

13- صالح فركوس، إدارة المكاتب العربية والاحتلال الفرنسي للجزائر في ضوء شرق الجزائر 1844-1871م، منشورات جامعة برج باجي المختار، الجزائر، 2006، ص 398.

14- Mouloud Kaid, Mokrani, édition Andalouses, Algérie, 1993, P.P.106-107.

15- تعود أصول أسرة الشيخ الحداد إلى أصل جزائري، من منطقة بني منصور الواقعة في جبال الببيان على الضفة اليمنى لواد ساحل، ويعتبر محمد أمزيان الحداد المولود بقرية صدوق في 1793م، أحد أبرز وجوه هذه العائلة خلال هذه الفترة، فلقد بقي الشيخ الحداد بعيدا عن العلاقات مع السلطات الفرنسية، غير أن أحمد باي يذكر في مذكراته قد ساهم في الدفاع عن مدينة قسنطينة سنة 1837م، وقد كان للشيخ الحداد دور في حشد المجاهدين خلال ثورة 1871م، وفي 13 جويلية 1871م استسلم للجنرال الفرنسي سوسيه، ليسجن في قرية بارال في بجاية، وافته المنية في 29 أبريل 1873م. ينظر: علي بطاش، لمحة عن تاريخ منطقة القبائل - حياة الشيخ الحداد وثورة 1871م، دار الامل، الجزائر، ط 3، 2010، ص.ص.75-85. وينظر: عمار طالبي، الشيخ ابن الحداد الصوفي الثائر، مجلة الأصالة، الجزائر، 1971، ع 01، ص.31.

16- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 52.

17- نفسه.

18- محمد غالم، التماثل والاختلاف في حركات التحرر المغاربية (الجزائر، تونس، المغرب)، ابن النديم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2010، ص 28.

19- أبو القاسم سعد الله، أبحاث آراء، دار الغرب الإسلامي، ج 4، لبنان، 1996، ص 168.

20- يحي بوعزيز، مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009، ص 534.

21- كانت فرق الصبايحية تتألف من المتطوعين الجزائريين الذين يطلق عليهم

يمكننا تسجيل العديد من التطورات الحاصلة في الجزائر خلال الفترة الممتدة منذ بداية العمليات العسكرية الفرنسية اتجاه تونس إلى غاية توقيع معاهدة باردو بين مدى تباطؤ مصير الشعبين، حيث نجد بأن رد فعل الجزائريين حول الحملة الفرنسية على تونس قد اتخذ العديد من المظاهر فمن الناحية العسكرية نسجل مقاومة الشيخ بوعمامة وأولاد سيد الشيخ ابتداء من 22 أبريل 1881م في الجنوب الشرقي الوهراني، كما نسجل انتشار إشاعات بين الجزائريين في المدن والأرياف حول التطورات الجارية بتونس، وكانت تلك الإشاعات تؤكد بأن ساعة المهدي المنتظر قد حانت ليضع حدا للاحتلال الفرنسي في الجزائر. وقد اشترك الجزائريين فعليا في الدفاع عن تونس فمع بداية العمليات العسكرية الفرنسية في تونس في أبريل 1881م نجد العديد من الجزائريون اشتركوا مع إخوانهم التونسيين في مقاومة الغزو الفرنسي لجزيرة طبرقة، وجبال خمير، ووشتاقة والفراشيش، وبني ماز، كما كان للجزائريين المقيمين بتونس دور فعال في مواجهة القوات الفرنسية، ويعتبر محمد السنوسي في هذا الاطار من أبرز وجوه المقاومة التونسية مع بداية التوسع الفرنسي بها.

كان نشاط المقرانيين والصبايحية والكلبوتي على الحدود الشرقية للجزائر وكذا نشاط الاعراش الجزائرية التي التجأت الى تونس عقب هذه الانتفاضات مبررا للسلطات الفرنسية للتدخل عسكريا في تونس في شهر ماي 1881م، غير أن الأسباب الفعلية التي جعلت السلطات الفرنسية تفرض حمايتها على تونس هي حالة الضعف الداخلي لتونس على عهد البايات المتأخرين الأسرة الحسينية، وزيادة النزعة الاستعمارية الأوروبية خلال القرن التاسع عشر. وأمام هذا الوضع سنجد الجزائريين يقفون الى جانب اخوانهم التونسيين في مواجهة المستعمر الفرنسي، سواء من داخل القطر الجزائري، او حتى من قبل الجزائريين المستقرين بتونس آنذاك، ويعود سبب ذلك الى وعيهم بأشكال الدمار التي يمكن أن يمارسها الاستعمار الفرنسي في البلاد التي يحتلها.

الهوامش

1- علي المحجوبي، انتصاب الحماية الفرنسية بتونس، ترجمة عمر بن ضو - حليلة قرقوري- علي المحجوبي، دار سراس للنشر، تونس، 1986م، ص 40.

2- نقولا زيادة، تونس في عهد الحماية 1881- 1834، القاهرة، مصر، 1963، ص 133.

3- فترة الاحتلال الفرنسي، ينسبهم بعض المؤرخين إلى العائلة الادريسية بالمغرب الأقصى، وقد كانت علاقات هذه الأسرة متوترة مع السلطات الفرنسية منذ احتلال هذه الأخيرة لمدينة قسنطينة سنة 1837م. ينظر: سعيد بورنان، شخصيات بارزة في كفاح الجزائر 1830-1962م (رواد المقاومة الوطنية في القرن 19م)، الطبعة الثانية، دار الهلال، الجزائر، 2004، ص 163.

4- يذكر الفريد رومبي في هذا السياق بان أخبار الهزائم الفرنسية أمام الألمان كانت تصل إلى محمد المقراني الذي نظم وسائل اتصال تجعله يطلع على تلك الأخبار. ينظر:

Alfred Rambaud, L'insurrection Algérienne -Etude Sociale

الجزائر-المغرب)، مكتبة الانجلو-مصرية، القاهرة، مصر، ط1، 1977، ص. 293.

39 - Cambon Henri. Histoire de la Régence du Tunis. ed. Plon. Paris.1912, P.108.

40- أحمد ابن أبي الضياف، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، ج3، الدار العربية للكتاب، تونس، 1999، ص.336.

41- جول فيري (1832-1893)(Jules Ferry): رجل سياسي فرنسي ووزير مستعمراتها وكان رئيس وزراء فرنسا من سنة 1880 إلى سنة 1885م، ارتبط اسمه بإصلاح التعليم حيث جعله علمانيا، كما كان حريصا على وضع أسس متينة لاستمرار سلطة الفرنسيين بالمناطق التي احتلوها لفترات طويلة خصوصا في تونس. ينظر:

Paul Robiquet. Discours et Opinions de Jules Ferry. Tome premier. Armand Colin éditeurs. Paris.1893.P.P.01-03.

42- علي المحجوبي، المرجع السابق، ص.39.

43-Pierre Giffard. Les Français a Tunis . Victor Havard Editeur. Paris.1881, P.13.

44-الطاهر بن عبد الله، الحركة الوطنية التونسية - رؤية شعبية قومية جديدة- 1830-1956، منشورات دار المعارف للطباعة والنشر، تونس، 1990، ص.25.

45- E. Rouad de Card . Traites de la France avec Les payes de l'Afrique de Nord . A. Pedon Editeur. Paris. 1906, P.230.

46-مقلاتي عبد الله، المرجع في تاريخ المغرب الحديث والمعاصر (الجزائر، تونس، المغرب وليبيا)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2014، ص.118.

47- أحمد عبيد، المرجع السابق، ص.173.

اسم الحركة أو الاورطية، والصبايحية، وقد استحدثها الفرنسيون في القرن 19م، لتساعدهم على فرض سيطرتهم على البلاد، ويبدو أنهم قلدوا في ذلك نظام (الشواش) الذي كان سائدا في عهد الأتراك، واهتموا بتنظيمها وتطويرها خلال عهد الإمبراطورية الفرنسية الثانية ويتكلف الصبايحية بحراسة المناطق التي يسكنونها، ومراقبة السكان من الناحية السياسية تحت إشراف الضباط الفرنسيين. ويطلق على التكتلات التي يتمركزون بها اسم الزمالات، ومعظمهم متزوجون ويتقاضون مرتبات شهرية، ويعملون في أراضيهم الخاص. ينظر: يحي بوعزيز، مواقف الرسميين التونسيين من ثورة الصبايحية والكلوتي في منطقة الحدود الشرقية عام 1871م، مجلة الأصالة، الجزائر، 1978، ع 60-61، ص. 157.

22- نفسه، ص.255.

23-Ernest Watbled. Une épisode de L'insurrection Kabyle de 1871. Reveux de deux Monde. 1873.P.627

24- Ibid., P.630.

25- يحي بوعزيز، كفاح الجزائر من خلال الوثائق، دار البصائر للنشر والتوزيع، طبعة خاصة، 2009، ص.257.

26- ينتسب محمد بن الكلوتي بن الطاهر بن زرقى إلى عائلة الحنانشة التي تقطن في شرق جبال الأوراس. وكان عمه زرقى الحناشي قد عينه أحمد باي شيخا على الحنانشة بدلا من الشيخ الحسناوي الحناشي الذي كان يتآمر عليه ويشاغب سلطته، ومحمد الكلوتي من أحفاد هذا الرجل، وفي أواخر القرن الماضي أصبح ثائرا وتمردا على السلطات الفرنسية لأسباب لم نتعرف عليها. ينظر: يحي بوعزيز، كفاح الجزائر من خلال الوثائق، المرجع السابق، ص.259.

27- Ernest Watbled. Op.cit.P.631.

28- Louis Rinn. Op.cit., P.P.122-124.

29- يحي بوعزيز، كفاح الجزائر من خلال الوثائق، المرجع السابق، ص.260.

30- ينتمي ابن ناصر بن فرحات الى قبيلة المعامرة والحجاج الذين ينتمون بدورهم إلى الحرازيلية أو أولاد حرز الله، ولد عام 1804م بالأربعاء قرب ورقلة وكان أبوه ابن شهرة، وجده فرحات قائددين وشيخين بالتوالي على الأربع. وقد ذكر رين أن أصل عائلة بن شهرة من الساقية الحمراء جنوب الأطلس الصغير، على المحيط الأطلسي، وقد شارك حتى في مقاومة الأمير عبد القادر قبل ذلك، ينظر: يحي بوعزيز، ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين، ج1، طبعة خاصة، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009، ص.218، وينظر أيضا: سعد الله أبو القاسم، الحركة الوطنية الجزائرية، المرجع السابق، ج 3، ص.363.

31- ورتي جمال، تطور نظام الإدارة الفرنسي في عمالة قسنطينة خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر- سوق أهراس نموذجا (1843-1900)، رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه في العلوم في التاريخ الحديث والمعاصر (مرقونة)، تحت إشراف مصطفى حداد، قسم التاريخ وعلم الآثار، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة منتوري، قسنطينة، 2010-2011، ص 373.

32- يحي بوعزيز، انتفاضة سكان الأوراس 1879م، مجلة الأصالة، الجزائر، 1978، ع 60، ص.220.

33- ورتي جمال، تطور نظام الإدارة الفرنسي في عمالة قسنطينة خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر- سوق أهراس نموذجا (1843-1900)، رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه في العلوم في التاريخ الحديث والمعاصر (مرقونة)، تحت إشراف مصطفى حداد، قسم التاريخ وعلم الآثار، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة منتوري، قسنطينة، 2010-2011، ص.374.

34- علي المحجوبي، المرجع السابق، ص.39.

35- خليفة شاطر وآخرون، تونس عبر التاريخ الحركة الوطنية ودولة الاستقلال، ج3، مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية، تونس، 2005، ص.36.

36- علي المحجوبي، المرجع السابق، ص. ص.15-18.

37-Jean Ganiage. Les Origines du Protectorat Français en Tunisie. P.U.F. Paris. 1959, P. 103.

38- شوقي عطا الله الجمل، المغرب العربي الكبير في العصر الحديث (ليبيا- تونس-